

لقد نفذ حزبنا إلى ضمير الشعب

أيها الرفاق^(١)

إنني أشعر بواجب ملحّ نحو الحزب. ان الذي يدعوني إلى الكلام في هذا الموضوع قد يختلف بعض الشيء عن الاعتبارات والنظرات التي يراعيها بقية الرفاق. ذلك اني رافقت هذا الحزب منذ بدايته، رافقته عمراً، وكانت لي مساهمة في وضع أفكاره - وهذا لا أقوله على سبيل الفخر ولكن من قبيل تقرير واقع. وقد يعتبر بعضكم أن هذه الأفكار لم تعد تلائم المرحلة الجديدة، ولكلّ رأي. على أية حال هنالك واقع حي وهو أنني رافقت هذا الحزب منذ بدايته وكانت لي من الناحية الفكرية بصورة خاصة مساهمة أساسية. فمن الطبيعي إذن، ومن المشروع، عندما أرى أن الحزب قد انتقل من مرحلة إلى مرحلة جديدة في بعض الأقطار، وهي مرحلة الحكم، ومرحلة البناء الاجتماعي، والبناء القومي وانه تبعاً لذلك يريد أن يتجدد وأن يلبي حاجة التطوير والتجديد في أفكاره وفي أنظمته، وانه عندما تلتقي إرادة تلبية هذه الحاجة مع وصول الحزب إلى الحكم في هذين القطرين، أعتقد انه من المشروع لواحد مثلي، في الظروف التي ذكرتها، أن يرتبّه وحثّه، وأن يشعر بالواجب الملحّ لتحذير رفاقه وإخوانه، فأنتم ستتابعون نضال هذا الحزب، وقد لا ترونني بعد اليوم بينكم. هذه إذن مناسبة لكي توجهوا أنتم إلى الأسئلة وتستوضحوا عن الأشياء التي تخفى عليكم وتترك التباساً في أذهانكم، لا أن يضيق بعضكم ذرعاً بكلامي.

(١) كلمة في الجلسة السادسة من جلسات المؤتمر القومي السادس (تشرين الاول عام ١٩٦٣) - مناقشة عامة للتقرير العقائدي... وجدير بالذكر ان المؤتمر قرر ترك الصياغة الجديدة لمقدمة التقرير العقائدي للرفيق الامين العام الاستاذ ميشيل عفلق.

أيها الأخوة

أكرّر وأقول انني عندما تكلمت في هذه الجلسة لأول مرة، تكلمت وأنا أقصد مقدمة هذا التقرير. لم أقصد الباب الذي يتحدث عن الاشتراكية والذي أقول بصراحة انني لم أطلع عليه الاطلاع الكافي. حضرت في اللجنة العقائدية قسماً من المناقشة في هذا الباب ولم أعترض على شيء أو ربما كانت لي اعتراضات بسيطة، لا أذكر. واليوم أقول لكم، أنه ليس لي اعتراض على هذا الباب، باب الاشتراكية. قد يكون في كليته وفي تفاصيله مطابقاً لأفكاري. ولكنني أعترض اعتراضاً جدياً على المنطلق الذي انطلق منه هذا التقرير، والذي سُجّل في المقدمة. فأنا اعترضت اعتراضاً عاماً في اللجنة العقائدية على المقدمة، وعلى روح التقرير بصورة عامة وجئت الى المؤتمر وأعدت اعتراضاً بنفس الشكل.

واني بصورة عامة، مع تقديري للجهد المبذول في التقرير ولكثير من الأفكار الواردة فيه إلا أن المنطلق الذي انبثق منه اعتبره مختلفاً عن المنطلق البعثي. لذلك عدت مرة أخرى الى إثارة هذا الموضوع خوفاً من أن يمر دون الاهتمام اللازم. لأنني لاحظت في الجلسات السابقة أن التعب حيناً واعتبارات أخرى أحياناً، تدفع المؤتمر الى التسرع بإقرار أشياء دون التدقيق المطلوب.

ولقد صارحتكم، وقلت لكم، أن المسألة هي مسألة قومية شعب، مسألة تاريخ أمة، حضارة أمة، حياة شعب عظيم مجيد مناضل. يجب أن توسعوا أفقكم وأن تنظروا الى شعبنا والى الأقطار والأجزاء التي ما زال الاستعمار مسيطراً عليها وما زالت الرجعية فيها تضطهد الشعب وتعذبه، وما زال النضال فيها عسيراً جداً. ماذا يربط هذا الشعب المتناثر في أراضي واسعة وأجزاء عديدة. ماذا يدفعه ويحفزه ويجدد إيمانه بالنضال غير هذه القومية؟؟ لقد عاش حزبنا تجربة عشرين سنة وهو يحرك الجماهير العربية بأسم القومية، وبأسم العامل القومي بالدرجة الأولى، وبالاشتراكية - أسمح لنفسي أن أقول - بالدرجة الثانية. ونأتي في هذا المؤتمر لنقرّ مبادئ وأفكاراً تنفي عن القومية صفة العلمية! فماذا بقي من القومية إذن؟ هل هي عاطفة فقط؟ أو هي خرافة؟ أم انها رواسب ستزول؟ إذا كانت الاشتراكية فقط هي العلمية!

هل يكفي، أيها الأخوة، أن نقفز مثل هذه القفزات متوهمين أن التضحية بشخصية الأمة، بقوميتها، أو مجرد تعريض هذه الشخصية، هذه القومية للاهتزاز، وللشك؟ هل تكفي ضرورات الحكم، الضرورات التي يواجهها المسؤولون الآن في القطرين اللذين يحكم فيهما الحزب لكي نُقدّم بخفة واستخفاف على القفز من فوق هذه المبادئ الأساسية التي هي بالنسبة إلى شعبنا بمثابة الروح للجسد؟ أو هل هذا هو شرط حقيقي لكي ينطلق الحزب ويبنى الثورة الاشتراكية؟ هل الحزب لا يستطيع أن يبنى الاشتراكية إلا إذا ضحى بالقومية؟ لا. هذا وهم، هذا تقليد سطحي، هذا عجز مع الأسف، عجز عن بذل أي جهد ثقافي وفكري، وتهويل وانقياد لآراء الآخرين، وتأثر باتهام الشيوعيين لنا بأننا متخلفون وأن أفكارنا غير علمية، أو التأثير بدعاية أجهزة عبدالناصر. أنه بسهولة وبدون تقدير دقيق لخطورة هذه الأمور نظن أننا لا نستطيع أن نكون اشتراكيين إلا إذا جرحنا قوميتنا، لا نستطيع أن نلبي حاجات الجماهير إلا إذا غيرنا منطلقاتنا. لماذا؟ ألم ينجح هذا الحزب في كسب ثقة الجماهير طوال هذه السنين؟ ألم ينفذ إلى قلب الشعب إلى ضمير الشعب، وأفكاره هي هي؟؟

أقول بصراحة، أيها الأخوة، اننا حتى في نضالنا السابق لم نصل إلى أعماق الشعب العربي كما كان يجب أن نفعل ذلك. بقينا مقصرين عن ولوج أعماق شعبنا. كان واجبنا أن نقرن ثورتنا الأصيلة العميقة الحاسمة، التي لاندانيها ثورية، والتي تظهر ثورية الشيوعيين أمامها مصطنعة، كان يجب أن نقرن ثورتنا بمعاناة حياة لجميع أشكال وأنواع الحياة التي يعيشها شعبنا العربي. لقد حاولنا نصف المحاولة، وقصرنا عن النصف الآخر.

لا أعتقد أنني أبالغ إذا قلت أن في ضمير كل واحد منا ومن أعضاء حزبنا غصة كبيرة، لأننا لم نندمج اندماجاً تاماً بالشعب خلال نضالنا. بقي الشعب ينظر إلينا، مع ثقته بنا، بأننا طبقة أرقى منه أو مختلفة عنه. هذا الشعب ذو التاريخ العريق، والذي يريد أن يبنى له مستقبلاً أعرق وأمجد، له ككل شعب. . تقاليد ومعتقداته، له حياته الروحية ولغته وآدابه. وقد قلت في كلمتي الأولى في هذا المؤتمر بأننا لم نحسن الاندماج

في كل ذلك وقصرنا عن الدخول في الجوّ الشعبي الأصيل !!
أيها الأخوة

روى لي مناضل ونقابي عاد مؤخراً من الصين الشعبية حديثاً عن تجربة الصين قال : تستغربون أن ماوتسي تونغ وزعماء الصين يحافظون على الطب الشعبي الى جانب الطب العلمي . والطب الشعبي أكثره مداواة بعيدة عن العلم ، فلقد بلغ بهم جهم للشعب وتغلغلهم في نفسيته وأعماقه وروحه هذا الحد ، حتى لا يصدموه ، ولا يجرحوه في أعمال ومواقف تبدو وكأنها جرح لكبريائه . لا بل أرى في هذه المحافظة على الطب الشعبي عندهم ، أكثر من الحب للشعب ، أرى فيها تقديراً للشعب ولقدرته الابداعية ، وقد يكون في هذا الطب الشعبي من القواعد العلمية ومن الأشياء التي إذا درست ، لتكشفت لنا جوانب من العلم .

أنا أفهم النضال الثوري بهذه الروح . ليس بالروح السطحية ، ولا بالاطلاع على السياسة ، وعلى بضعة ألفاظ وبضعة أساليب ، وليس بالتناحر وبأسلوب السب والشتم للأعداء وللخصوم ، ثم لا يلبث الأمر حتى ينتقل هذا الداء إلينا ويتفشى في أوساطنا ، ويبدأ سوء الظن والشك الى غير ذلك من الأمور .

ثورة البعث أرادت منذ البدء أن تأتي بعنصر روحي . الى أي حدّ توفقت؟ هذا شيء آخر . وأقول أن هناك تقصيراً ، وكلنا مسؤولون ، ولكن هل هذا يكفي لكي نياس من ذلك الطموح الذي غدّى نضالنا منذ البدء؟ هل يجوز لنا أن نتخلى عن ذلك المطمح الأول؟

أيها الأخوة

إذا أردنا إذن أن ننظر للمسألة بجوّها الصادق الصحيح ، الحزبي ، اللائق بحزبنا ، فلننظر إليها بعيداً عن الاعتبارات الأخرى ، عن الانفعالات أو الانقسامات أو أي شيء آخر ، لأنها مسألة حيوية . مسألة شخصية هذه الأمة ، مسألة روح النضال لأجزاء من شعبنا هي اليوم جدية باهتمامنا أكثر من الماضي . إذا كان حزبنا قد وصل إلى الحكم وأصبحت لديه وسائل ، فهذا يلقي على عاتقه مسؤوليات كبيرة هي أن يضاعف اهتمامه بالأجزاء غير المتحررة ، بالأجزاء التي لا زالت تناضل وتقاسي وتقاتل

وباعتقادي أننا نستطيع أن نتفق على أفكار وتعديلات ضرورية ومفيدة، ندخلها على عقيدة الحزب وأفكاره، وتكون مساعدة لنا في عملنا المقبل دون أن نتعرض، أو نمسّ، هذه القضية الأساسية. ولست مبالغاً إذا قلت أن بعض هذه المنطلقات يهدد قومية الحزب، وقد ظهر ذلك في المقدمة، وظهر أيضاً في كلمات بعض الاخوان.

لقد أشرت قبلاً الى الكلام الذي ينفي العلمية عن القومية، وهناك قول آخر ورد في المقدمة ومفاده أن تعديل الشروط الاقتصادية هو نقطة انطلاق لتغيير الجوانب الأخرى من الحياة الانسانية. وأنا لا أقول أن نضال عشرين سنة يدحض هذه الفكرة، وإنما أقول أنه يجعلها ناقصة. لو كان العامل الاقتصادي هو المحرك الأساسي الوحيد، لما كان هناك حزب البعث، لأن حزب البعث منذ اليوم الأول لتأسيسه، وكتاباتة تشهد كما يشهد نضاله، نظر الى العوامل الأخرى لتطور المجتمعات، مع أنه يعتقد أن العامل الاقتصادي هام جداً وأساسي، ولكنه ليس العامل الوحيد. وقد ذكر أحد الرفاق في تحليله لثورة الجزائر أنها هي أيضاً ثورة اقتصادية. وفسرها هذا التفسير المادي، واعترض بعضكم على هذا القول، فإذا نحن استعجلنا، ولم نتأنّ، فقد تغلب بالتالي أفكار تؤدي الى نفي القومية بعد أشهر أو بعد سنة!!

أقول أخيراً للاخوان الذين انتقدوني، اني أشكرهم على نقدهم وأتقبله منهم، أعذرهم إذا بالغوا أو أخطأوا التعبير. فأنا في اللجنة العقائدية لهذا المؤتمر، وبالضبط في التعديلات الأخيرة للتقرير لم أشارك فيها، ولم أر الصيغة النهائية. وفضلت أن أوضح أفكاري وملاحظاتي في المؤتمر، لأنها تستوجب أن يهتم بها، ويتنبه إليها ويشارك في مناقشتها الجميع، وليس لجنة مؤلفة من خمسة أو ستة أعضاء فقط. هذا إلى جانب أن الأفكار لا تحضرني دفعة واحدة، بل أنتبه الى بعض الأشياء وأقولها، ثم أنتبه الى غيرها في حين آخر فأقوله. وما أمله من هذا المؤتمر أن يعتبرني كما قلت وطلبت شاهداً على نمو هذا الحزب، وسوف لا أكون مرتاحاً إذا أبقيت شيئاً لم أقله، وربما أنتم أيضاً

ستأسفون في المستقبل، إذا لم تسمعوا مني نتيجة تجربتي في هذا الحزب.

١٦ تشرين الأول ١٩٦٣